مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة - تصدر سنويًا

العدد
السادس عشر
1999

1429 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1999 إفرنجي

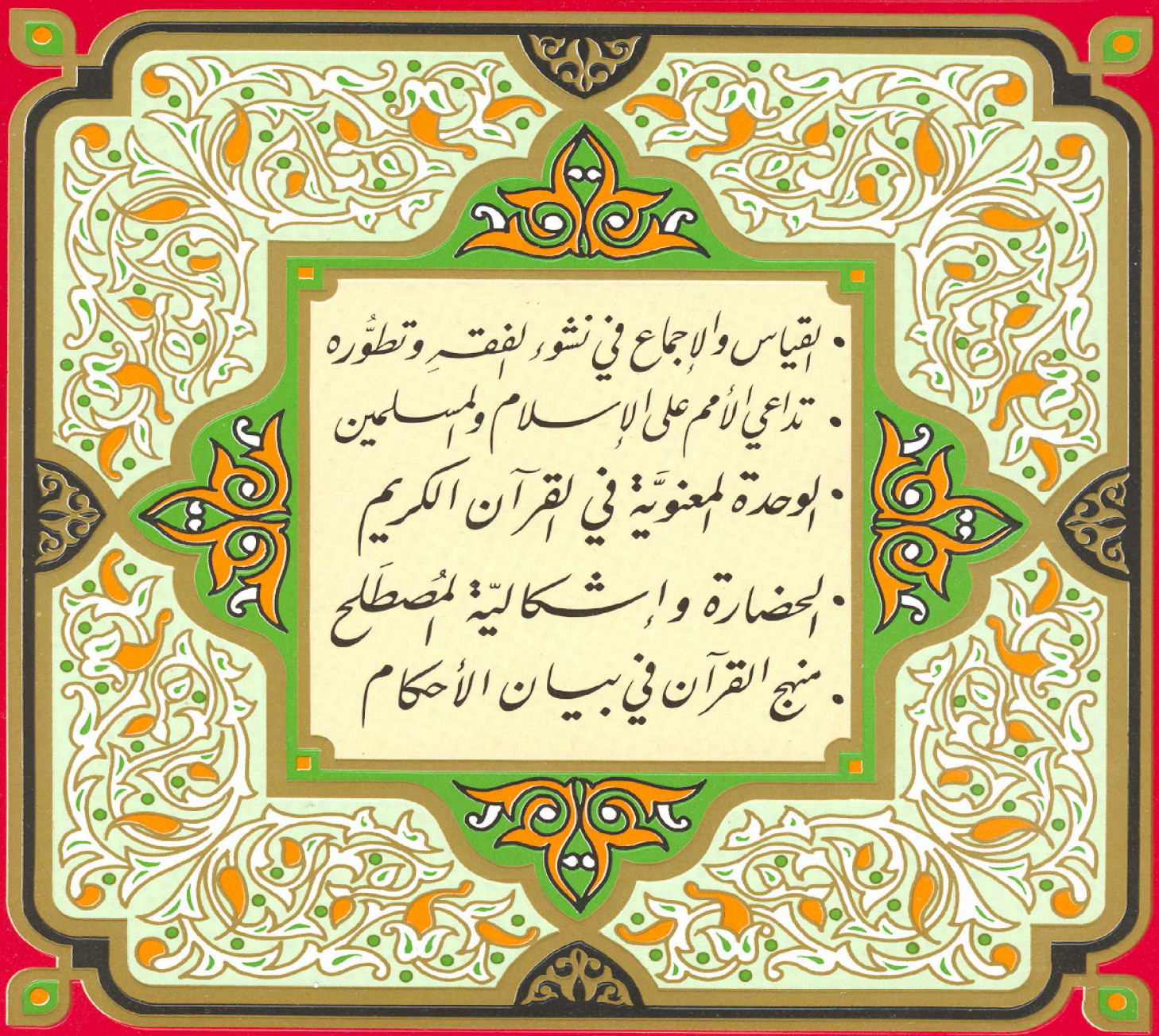

تداعي الأمم على الإسلام والمسلمين

د. حليم السيد الصعيدي
كلية الآداب - الزاوية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديه وسار على منهجه، إلى يوم الدين.

أما بعد.

فمما لا شك فيه أن عداء أهل الكفر للإسلام والمسلمين متأصل في قلوبهم، وأنهم لن يألوا أي جهد في سبيل الحصول على أغراضهم، والوصول إلى أهدافهم لإحكام قبضتهم على المسلمين، وإخضاعهم لسلطانهم وتسييرهم حسب أهوائهم وأغراضهم.

وقد تكفل الله بنصر عباده المؤمنين والدفاع عنهم وجعل الغلبة والسبيل لهم على الكافرين في كثير من آي القرآن الكريم نذكر منها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. وقوله تعالى ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[2].

وقد أخبر النبي ﷺ أن الأمم تتداعى على المسلمين كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. وهذا يعني أن السبيل يكون للكافرين على المؤمنين.

كما أخبر ﷺ أنه دعا ربه أن لا يهلك أمته، وألا يسلط عليها عدواً يستأصل بيضتها، وأن الله قد استجاب لرسوله ﷺ، وأعلمه بأنه لن يهلك أمته، ولن يسلط عليها عدواً يستأصل بيضتها حتى يكون بعضهم يقتل بعضاً ويسبي بعضهم بضعاً.

وقد تحقق ما أخبر به النبي ﷺ فتداعت الأمم على الإسلام والمسلمين، وأصبح السبيل للكافرين، واقتتل المسلمون فيما بينهم فقتل بعضهم بعضاً وسبى بعضهم بعضاً.

ووقوع ما أخبر به النبي ﷺ لا يعني أن الله قد أخلف وعده بنصر المؤمنين والدفاع عنهم، ووقع خلاف ما أخبر به القرآن من أن السبيل للمؤمنين على الكافرين؛ لأنه لا تعارض بين الكتاب والسنة والواقع المعاش للأمة. وهذا ما سنبينه في هذا البحث الموسوم بعنوان (**تداعي الأمم على الإسلام والمسلمين**) **الذي يقع مرتباً على النحو الآتي:**

- شرح حديث:
- «يوشك الأمم أن تداعى عليكم».
- مظاهر عداوات غيرالمسلمين.
- لا سبيل للكافرين على المؤمنين.

---

(1) سورة الروم، الآية: 47

(2) سورة النساء، الآية: 141

- سألت ربي أن لا يهلك أمتي.
- معية الله لعباده المؤمنين.
- المنتسبون إلى الإسلام لا تتحقق لهم معية الله.
- الخاتمة.

شرح حديث
«يوشك الأمم أن تداعى عليكم»

يصور النبي ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ما آل إليه حال أمته في هذه الأيام من خلاف وشقاق ووهن في التمسك بتعاليم الإسلام وانغماسٍ في حب الاستمتاع بالدنيا وكراهية الموت في سبيل الله. وذلك في قوله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم...**».

وحيث إن النبي ﷺ قد شخص الداء في هذا الحديث وصرف الدواء ودعا أمته للأخذ بأسباب الوقاية والعلاج، وواقع المسلمين في هذه الأيام يعتبر دليلاً صادقاً على صدق ما أخبر به النبي ﷺ في هذا الحديث، أرى من الفائدة أن نبدأ بدراسته لنَعْبر من خلاله إلى بيان مظاهر عداوات غير المسلمين للمسلمين والإسلام.

تخريج الحديث

عن ثوبان قال؛ قال رسول الله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**» **فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ. قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن «فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن. قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»**. **أخرجه أحمد وأبو داود**[3].

جاء في شرح السنة للبغوي: (وأبو عبد السلام مجهول، وباقي رجاله

(3) سنن أبي داود: جـ 4. ص111. دار الفكر، وصحيح سنن أبي داود: جـ 2. ص210. باب في تداعي الأمم على الإسلام. ط: دار الفكر العربي بيروت.

ثقات، لكن رواه أحمد بنحوه من طريق آخر وسنده قوي فصح به)[4].

ورواية أحمد عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها» قال: قلنا يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ. قال: «أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن». قال: قلنا وما الوهن. قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[5].

والحديث وإن كان فيه مقال، إلا أنه يُعمل به؛ لتعدد طرق رواياته؛ ولأنه لا يُثبت حكماً شرعياً، وإنما يصف واقعاً تعيشه الأمة. وتعدد طرقه، ومطابقة الواقع له، وعدم تعارضه مع نصٍ شرعي يقوي ضعفه؛ لأنه كالمرآة تعكس الحقيقة التي تعيشها الأمة في هذه الأيام، يشخص الداء، ويصرف الدواء، ويدعو للأخذ بأسباب الوقاية والعلاج.

شرح الحديث

(يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها).

(يوشك) تفيد تحقق الوقوع لوجود القرينة الدالة على ذلك. حيث إن واقع المسلمين في هذه الأيام يعتبر تفسيراً واقعياً للحديث. ولفظة (يوشك) وإن كانت تفيد قرب وقوع الشيء، إلا أنها تفيد تحقق الوقوع إذا وجدت قرينة تدل على ذلك.

(الأمم) ذكر النبي ﷺ الأمم بصيغة الجمع وهذا يفيد أن غير المسلمين متحدون في عدائهم للإسلام والمسلمين. فغير المسلمين وإن كانوا فرقاً وأحزاباً إلا أنهم أمام الإسلام والمسلمين يقفون صفاً واحداً، فالكفر كله ملة واحدة.

(أن تداعى عليكم) التداعي هو الإقبال بكثرة وبشدة. وهو تصوير لحال الأعداء، فكأن كل واحد يدعو الآخر للنيل من الإسلام والمسلمين، وفي الوقت نفسه كل واحد حريص على أن يحقق مآربه ويصل إلى غايته وينال من الإسلام

---

(4) شرح السنة للبغوي: جـ 15. ص16. ط: المكتب الإسلامي.

(5) مسند الإمام أحمد بن حنبل: جـ 5. ص278. ط: دار الفكر.

والمسلمين ويقضي عليهم. فهدف الجميع واحد، وكل واحد يسبق الآخر في تحقيق الهدف المرتقب للجميع.

(كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) تصوير لإحكام الحصار من الأعداء على المسلمين، وكأن المسلمين لا حول لهم ولا قوة؛ لما دبَّ فيهم من ضعف جعلهم لقمة سائغة بين يدي أعدائهم يُسَيِّرونهم حسب أهوائهم وأغراضهم.

كما يعتبر تصويراً للحقد الذي تآكلت منه قلوب الأعداء على الإسلام والمسلمين، وأن النيل من الإسلام والمسلمين هو الذي يشفي غليل صدورهم، وأنهم يكيدون للمسلمين بشراهةٍ، ولن يهنأ لهم عيش حتى يحققوا غاياتهم.

(فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ. قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل)

قال النبي ﷺ: (بل أنتم يومئذ كثير) رداً على من قال: **(ومن قلة نحن يومئذ)** فقد بيَّن النبي ﷺ أن سبب ضعف المسلمين أمام أعدائهم ليس هو قلة عددهم، وإنما ضعف إيمانهم، وعدم تمسكهم بكتاب الله وسنة ورسوله.

وفي قوله ﷺ: (ولكنكم غثاء كغثاء السيل) تصوير لما آل إليه حال المسلمين من التفكك والضعف حتى أصبحوا عاجزين عن مواجهة التيارات المعادية، بل أصبحت هذه التيارات تقلبهم حسب الأهواء والأغراض، وهذا يعني أن المسلمين لن يقدروا على مواجهة أعدائهم إلا إذا اتحدوا وأخذوا بكل الأسباب التي تجعلهم أهلاً لنصر الله لهم؛ لأن نصر الله إنما يكون لمن نصر دينه، وما العدد والعتاد إلا مجرد أخذ بالأسباب. ولقد كانت غزوة بدر الكبرى فرقاناً بين عوامل النصر وعوامل الهزيمة، فعوامل النصر الظاهرة كلها كانت لصالح المشركين لكثرة قوتهم في العدد والعتاد فقد كانوا أكثر من ثلاثة أضعاف جيش الإسلام[6].

ثم كانت غزوة أحد تربية وتمحيصاً للمسلمين ودرساً عملياً ودليلاً واقعياً

---

(6) ينظر: زاد المعاد لابن القيم: جـ 2. ص228. تحقيق محمد حامدالفقي، وسيرة ابن هشام: جـ 2. ص354. ط: مطبعة الشعب بمصر.

على أن نصر الله للمؤمنين لا يكون بالعناية الإلهية دون الأخذ بالأسباب، وإنما يكون لمن نصر دينه وأخذ بالأسباب متوكلاً على الله. فقد كان النصر حليف المسلمين أول المعركة وقت أن كانوا آخذين بالأسباب متوكلين على ربهم ناصرين دينه، فلما خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ دارت الدائرة عليهم، ثم نصرهم الله على أعدائهم بعد أن أخلصوا نياتهم في الجهاد والتفوا حول قائدهم ﷺ[7].

ثم كانت غزوة حنين درساً عملياً على أن الكثرة العددية مع الانشغال بغير الله والاعتماد على قوة غير قوته ليست بشيء؛ لأن الله ينصر دينه بالصفوة المختارة لا بالزبد الذي يذهب جفاءً ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح. فقد كان عدد المسلمين في هذه الغزوة أضعاف عدد المشركين، ويفوق عددهم: أي المسلمين ـ في أي معركة سابقة، فلما أعجبتهم كثرتهم في هذه الغزوة، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم أنزل الله سكينته عليهم وأيدهم بنصر من عنده بفضل ثبات النبي ﷺ والتفاف المسلمين من حوله[8].

(ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن. قال: حب الدنيا وكراهية الموت).

بالنظر في هذه العبارة النبوية يتبين لنا ما يلي:

1 ـ أن نصر الله للمؤمنين الآخذين بكل الأسباب التي تجعلهم أهلاً لتحقق نصر الله على أيديهم يكون بإنزال السكينة في قلوبهم فتطمئن نفوسهم وترسخ أقدامهم فيثبتون في الميدان. فالإيمان هو الزاد الذي يتزودون به في ميدان القتال، والقوة التي تنزل السكينة في قلوبهم، والسلاح الذي ينتصرون به على

---

(7) ينظر: الطبقات الكبرى: ابن سعد. جـ 3. ص88، وسيرة ابن هشام: جـ 3. ص23. ط: مطبعة الشعب.

(8) ينظر: زاد المعاد لابن القيم: جـ 2. ص438. بحقيق محمد حامد الفقي، والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة: محمد أبو شهبة. ص364، 365، وسيرة ابن هشام: جـ 4. ص51 ـ 55. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط: مطبعة الشعب بمصر.

أعدائهم. أما الأعداء فيقذف الله في قلوبهم المهابة، فتضطرب نفوسهم، وتزلزل أقدامهم، فيجبنوا ويضعفوا عن مواجهة المسلمين.

2 ـ إذا وهنت العقيدة في نفوس المؤمنين، وقصروا في الأخذ بالأسباب التي تجعلهم أهلاً لتحقيق نصر الله على أيديهم، يَكِلُهم الله إلى أنفسهم، وينزع السكينة من قلوبهم، فتضطرب نفوسهم، ويضعفون عن مواجهة أعدائهم؛ لأن الله نزع المهابة من قلوب أعدائهم فيقوون على محاربتهم.

3 ـ المقاتل في الميدان لكي يتحقق النصر على يديه لا بد أن يزود بقوة داخلية وهي الباعث على القتال. وتتوافر له القوة الخارجية وهي أسباب النصر الظاهرة. فالمؤمن الذي يكون أهلاً لتحقيق نصر الله على يديه يستمد قوته الداخلية من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهي السكينة التي ينزلها الله على قلبه. كما أن غايته من الجهاد هي إعلاء كلمة الله. فيُقبل على المعركة وهو واثق من أن النتيجة لا تخرج عن واحد من اثنين. إما النصر، وإما الشهادة، وكلا الأمرين محبب إلى نفسه. أما إذا قطع المجاهد صلته بربه، وانشغل بحب الدنيا، وكره الموت في سبيل الله، فإنه يفقد القوة الداخلية؛ لأن الله ينزع السكينة من قلبه، ويكله إلى نفسه، فيخاف الموت؛ لأن حرصه على الحياة أكثر من حرصه على الشهادة، فيضعف عن مواجهة الأعداء. يؤيد ذلك ما يلي:

أ ـ في غزوة أحد: دارت الدائرة على المسلمين واشتد الأمر عليهم، وعلى الرغم من ذلك كان المؤمنون مطمئنين واثقين بأن نصر الله لهم في النهاية، وأن ما أصابهم إنما هو ابتلاء وتمحيص.

أما المنافقون فقد ملك اليأس قلوبهم وتزعزعت نفوسهم وتزلزلت أقدامهم. وصوَّر لنا القرآن الكريم موقف كل من الفريقين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[9].

(9) سورة آل عمران، الآية: 154.

يقول ابن مسعود: (النعاس في القتال أمنة من الله، والنعاس في الصلاة من الشيطان وذلك لأنه في القتال لا يكون إلا من غاية الوثوق بالله والفراغ عن الدنيا، ولا يكون في الصلاة إلا من غاية البعد عن الله)[10]. وقال ابن كثير ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف[11].

ب ـ في غزوة الأحزاب اشتد الكرب على المسلمين وزلزلوا زلزالاً شديداً وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر. ومع ذلك أقبل المؤمنون على المعركة بخطى ثابتة ويقين صادق، واستقبلوا كل ما واجههم من الهول والكرب والضيق باطمئنان ويقين بأن النصر من عند الله، وما زادهم ذلك إلا إيماناً وثباتاً في الميدان. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[12]. أما المنافقون فقد كان موقفهم هو التخاذل والتراجع والتشكيك في نصر الله للمؤمنين[13]. يصور ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[14].

4 ـ حب الدنيا والانغماس في ملذاتها، وكراهية الموت في سبيل الله، يلحق الذل والخزي بالمؤمنين. يؤيد ذلك ما روي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»**[15].

الحديث أخرجه أبو داود من رواية نافع، وأخرجه أحمد من رواية عطاء

---

(10) تفسير الفخر الرازي: جـ 3. ص73.

(11) تفسيرابن كثير: جـ 1. ص418.

(12) سورة الأحزاب، الآية: 23.

(13) ينظر: الكشاف للزمخشري: جـ 3. ص353. ط: المطبعة الأميرية، وأحكام القرآن للقرطبي: ص5297. ط: مطبعة الشعب بمصر، وتفسير ابن كثير: جـ 3. ص472. ط: مطبعة المنار.

(14) سورة الأحزاب، الآية: 12.

(15) سبل السلام للصنعاني: جـ 2. ص12. ط: الاستقامة بالقاهرة.

ورجاله ثقات وصححه ابن القطان. وقيل الحديث معلول وفي إسناده مقال. وواقع المسلمين في هذه الأيام يؤيد هذا الحديث.

مظاهر عداوات غير المسلمين

مظاهر عداوات غير المسلمين كثيرة يصعب حصرها وذكرها مفصلة في هذا المجال. لذا سنكتفي بالإشارة إلى بعضها من باب الذكر لا الحصر دون الغوص في التفاصيل. وذلك فيما يلي: ـ

أولاً: تشويه الفكر الإسلامي بما يفترونه من الأكاذيب حيث يعتكفون على دراسة الإسلام ويظهرونه في صورة سيئة تخدم أغراضهم وتسيء إلى الإسلام. يقوم بذلك المستشرقون، والمبشرون، ويساعدهم الاستعمار في تحقيق أهدافهم، فيمكنهم من المقام في البلاد الإسلامية الخاضعة لإرادته ونفوذه، ويمدهم بكل ما يُمكّنهم من تحقيق أهدافهم والوصول إلى غاياتهم.

ثانياً: إخضاع المسلمين وإذلالهم والسيطرة عليهم. وذلك يكون بما يلي:

أ ـ السيطرة على الأرض بالاستيلاء عليها. وهو ما يسمى بالاستعمار.

ب ـ الغزو الاقتصادي. وذلك يكون بالسيطرة على اقتصاد البلاد الإسلامية وتوجيهه الوجهة غير السليمة.

جـ ـ الغزو الفكري. وذلك يكون بتضليل فكر المسلمين، وإيقاعهم في مذاهب متعددة، وإيقاع العداوة والبغضاء بينهم لتمزيق وحدتهم.

ثالثاً: العمل على إضعاف تمسك المسلمين بدينهم، فأوعزوا إليهم الإفراط في حب الاستمتاع بالدنيا وكراهية الموت في سبيل الله بما صدروه لهم من حضارة زائفة أضعفت تمسك الكثيرين منهم بدينهم، فضعفت في نفوسهم الحمية الإسلامية.

رابعاً: العمل على تقطيع أواصر الصلة بين المسلمين، ليمزقوا وحدتهم ويفرقوا شملهم. فقد استطاع الأعداء أن يجعلوا الأرض الإسلامية ساحة القتال ليُقضى على الأخضر واليابس فيها. كما جعلوا المسلمين هم مادة القتال تدور

رحى المعارك على رقابهم ويكْتوون بنارها، فيُقتل الرجال، وتيتم الأطفال، وترمل النساء. وليت ذلك في حروب تدور بين المسلمين وغير المسلمين وإنما الذي يأسى له القلب أن المسلم يقتل أخاه المسلم لغير سبب، وما ذلك إلا مكيدة نصبها لهم الأعداء ليقضوا عليهم قطراً بعد قطر وإقليماً بعد إقليم. أما آلة القتال فقد سيطروا عليها ووضعوا المسلمين تحت إرادتهم، إن شاؤوا أعطوهم، وإن شاؤوا منعوهم، فمُلئت خزائنهم بأموال المسلمين، أخذوا خيراتهم، وصدروا إليهم سمومهم، وما الأزمات الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع الإسلامي إلا نتيجة لذلك. وقد كان لهذا الأسلوب الماكر الهدام وهو تقطيع أواصر الصلة بين المجتمع الإسلامي أكبر الأثر فيما وصل إليه حال المسلمين في هذه الأيام من التفرق والاختلاف، وحقيقة الأمر أنهم جميعاً يجب أن يكونوا أمة إسلامية، ليحيوا أعزاء لا يقبلوا الضيَّمْ، أقوياء لا يرضوا بالذل، كرام النفوس، يرون الموت في سبيل الله هو الحياة الخالدة، فلا الكفر يحمي الإسلام والمسلمين، ولا هو حريص على رفع راية الدين، وإنما هدف الجميع إيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين؛ ليحكموا قبضتهم عليهم، ويسِّيروهم وفق أغراضهم وأهوائهم.

خامساً: يُظهرون خلاف ما يبطنون، فيمدون يدي الصداقة ليتغلغلوا بين صفوف المسلمين، وهي في الحقيقة محاولة منهم للقضاء على المسلمين. كموقف أمريكا في الخليج العربي تحت زعم حماية دول الخليج من خطر العراق، والحقيقة أن هدفها هو إحكام قبضتها على البلاد العربية، واستغلال خيراتها واستنزاف أموالها، والسيطرة على بترولها، وحماية إسرائيل. لذا فكلما هدأت نار الفتنة بين المسلمين أشعلتها من جديد، لتظل المنطقة ساخنة ونارها حامية، تحرق الأمة الإسلامية وتزيد من ضعفها وإخضاعها لسيطرة أعدائها، ويزداد الأعداء بسبب ذلك قوة وثراءً، حيث يُحكمون قبضتهم على الأرض، والشعب، وتُملأُ خزائنهم بأموال المسلمين.

وإذا كان العراق قد أعطاهم الحجة باحتلال الكويت سنة 1990ف الذي جعلوه ذريعة يحققون بها أهدافهم، فشعبه يكوى بنار لا رحمة فيها ولا شفقة

بسبب ذلك. وعلى الرغم من تحرير الكويت سنة 1991ف إلا أنهم لم يرفعوا أيديهم عن العراق والكويت معاً، ولا عن الأمة كلها.

سادساً: فرض الحصار على الدول الإسلامية والعربية بعد اتهامها بالإرهاب، وتقنين ذلك ـ أي الحصار ـ ليصبح عملاً مشروعاً وملزماً. وهذا من أخطر الأسلحة؛ لأنه الموت البطيء للأمة حيث يؤدي إلى تدمير اقتصادها، وانتشار الفقر وتفشي الأمراض فيها، وتظهر آثاره السيئة على الدولة المحاصرة على المدى القريب والبعيد، حيث تزداد تأخراً بسبب حرمانها من كل أسباب التقدم الحضاري في شتى مناحي الحياة. وليت هذا ـ أي الحصار ـ مبني على الحق والعدل، وإنما الغرض منه القضاء على الإسلام والمسلمين بالدرجة الأولى. فالذي يلتزم بدينه إرهابي، والذي يملك سلاحاً يدافع به عن نفسه إرهابي، والذي لا يخضع لسلطان الكافرين إرهابي، والذي يدافع عن حقه أو وطنه إرهابي. وغير ذلك من الافتراءات التي يصفون المسلمين بها ويلبسونها ثوب الإرهاب.

سابعاً: وصف المسلمين بالإرهاب: وخلاصة القول في هذه المسألة ما يلي:

1 ـ يأمر الإسلام أبناءه باتباع الحق والعدل، سواء أكان ذلك في معاملاتهم بعضهم مع بعض، أم مع غيرهم، فالمسلمون إخوة، والناس سواسية كأسنان المشط، لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[16] وقال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[17] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[18].

وقال ﷺ مخاطباً قريشاً يوم فتح مكة: «. . . **يا معشر قريش، إن الله قد**

---

(16) سورة الحجرات، الآية: 10.

(17) سورة الممتحنة، الآية: 8.

(18) سورة المائدة، الآية: 8.

أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب. . .»[19].

وشريعة الإسلام تهدف إلى تحقيق المصلحة العامة والخاصة لبني الإنسان جميعاً، وعلى رأسها الأمن والأمان، وهما مصدر سعادة بني الإنسان فحرَّمت الاعتداء على الناس في أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، وسائر حقوقهم؛ لأن هذا يدخل الغبن على المعتدى عليه، ويؤدي إلى قطع أواصر الصلة بين الناس، فينتفي الأمن والسلام، ويحيا الجميع حياة غير هانئة.

ومع ثبات هذه الحقيقة فإن أعداء الإسلام يتهمون المسلمين بالإرهابيين، وينسبون إليهم كل عمل لا يقره شرع ولا قانون، ويُحلُّون لأنفسهم فعل كل شيء ويعتبرونه عملاً مشروعاً ولو كان ما يقومون به اعتداء على حقوق المسلمين، ويُحرِّمون على المسلمين فعل أي شيء يحقق مصلحة للمسلمين ويخالف هوى الكافرين، ويعتبرونه عملاً إرهابياً غير مشروع ولو كان ما يقوم به المسلمون هو الدفاع عن حقوقهم ورد اعتداءات الكافرين عليهم.

وحالة التردي والضعف التي يعيشها المسلمون هذه الأيام هي التي ساعدت على فرض هيمنة أعدائهم عليهم واتهامهم بالإرهابيين، وكأن الإسلام دين يربي أبناءه على الإرهاب.

وموقف الكافرين هذا تمهيد لشن حرب على الإسلام والمسلمين لاستئصالهم من الوجود وإحكام القبضة عليهم بدعوى الإرهاب، وكأن غير المسلمين ملائكيون يستحقون البقاء، والمسلمون شياطين يستحقون الفناء.

وقولي هذا لا يعني أن المسلمين ملائكيون معصومون من الخطأ، فهم بشر يصيبون ويخطئون، وقد تقع أعمال عنف من بعضهم، ولكن من الإنصاف أن يُنسب الفعل إلى فاعله ولا يُعَمَّمَ على كل المسلمين ويصبح الإرهاب صفة ملازمة لهم دون غيرهم.

---

(19) السيرة النبوية: ابن هشام. جـ 5. ص73. ط: دار الجيل. الطبعة الأولى.

2 ـ **مفهوم الإرهاب. الإرهاب هو**: إدخال الرعب في قلوب الناس بترويع الآمنين والاعتداء على المسالمين بغير حق.

والإرهاب يكون من الفرد، والجماعة، والدولة، فالعبرة بالفعل لا بمن وقع منه الفعل.

والعمل المشروع لا يكون عدواناً، ولا يسمى إرهاباً؛ لأن القائم به على حق. والحق الذي يجعل العمل مشروعاً هو ما يقره الشرع، والقانون، والعرف، والعقل السليم. فالمرجع الذي يحتكم إليه الناس ويجعلونه قانوناً ملزماً لهم هو الذي يقرر ما إذا كان العمل مشروعاً، أم لا.

والمرجعية: التي يحتكم إليها الناس في تقرير مشروعية العمل من عدمه يشترط فيها العدل والنزاهة وفق مقاييس تزن بميزان العدالة بين بني الإنسان عامة.

أما إذا كانت الأمور توزن بميزان المصلحة الخاصة، فإن العدل يتفاوت بين الناس. فما يعتبر عدلاً في نظر واحد، قد يعتبر ظلماً في نظر آخر، لاختلاف ميزان العدالة في نظر الناس. فيصبح الحق في نظر كل واحد ما صادف هوىً في نفسه ويحقق له منفعة ولو على حساب غيره. وبذلك يُضْفي كل واحد الشرعية على ما يقوم به من اعتداء على حقوق غيره، ويصف نفسه بالنزاهة، ويتهم غيره بالإرهاب، ويعطي لنفسه الحق في الاعتداء على غيره، ويسلب غيره حقه في دفع العدوان عن نفسه.

3 ـ **القتل والترويع بغير حق لا يقره الإسلام**. الحق الذي لامراء فيه أن الإسلام يمقت الإرهاب ولا يقره بحال من الأحوال، والمسلمون المخلصون الفاهمون لشرع الله الملتزمون به ليسوا إرهابيين؛ لأن الإرهاب ترويع للآمنين، ويؤدي إلى قتل النفس بغير حق. والإسلام صان النفس البشرية وحافظ عليها وحرَّم الاعتداء عليها بغير حقٍّ، مسلمةً كانت، أم غير مسلمة بل حرَّم على الإنسان أن يعتدي على نفسه ويعيث فيها فساداً، ومن أجل ذلك كان تشريع الحدود والقصاص في الإسلام.

فالنفس المؤمنة لا يحل قتلها إلا بحق مصداقاً لقول رسول الله ﷺ في

الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد اللّه بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة**»[20].

وغير المسلم إن كان خاضعاً لأحكام الإسلام (أهل الذمة)، يحرم الاعتداء عليه بغير حق، ويقتص من المسلم إذا قتله. قال بذلك الحنفية[21] والشيعة الزيدية»[22] والشعبي والنخعي وغيرهم؛ لعدم اشتراط المماثلة بين القاتل والمقتول في القصاص عندهم.

ـ عن عبد اللّه بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قتل نفساً معاهدة لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً «أخرجه البخاري»**[23].

أما إذا كان غير المسلمين غير خاضعين لسيادة الدولة الإسلامية، فإن كانوا معاهدين، وجب الوفاء لهم بعهدهم ما كانوا على العهد قائمين، ويحرم الغدر بهم وقتلهم والاعتداء عليهم، فإذا نقضوا عهدهم خفية وجب على ولي أمر المسلمين التثبت من ذلك. فإذا تيقن من نقضهم العهد نبذ إليهم عهدهم[24]. قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(20) مختصر صحيح البخاري: الزبيدي. جـ 2. ص496. حديث رقم: 2171. ط: الشركة الجزائرية.

(21) ينظر: اللُّباب في شرح الكتاب لعبد الغني الغنيمي: جـ3. ص 144 دار الكتاب العربي، ونيل الأوطار للشوكاني: جـ 7. ص153. ط: دار الجيل، والقصاص والديات في الفقه الإسلامي: أحمد الحصري. ص327.

(22) ينظر: الروضة البهية شرح اللمعة الدمشقية للعاملي: جـ 10. ص58/ 59/ والنهاية في مجرد الفقه والفتاوي لعلي الطوسي: ص749. ط: دار الكتاب الطبعة الثانية.

(23) صحيح البخاري بحاشية السندي: جـ 4. ص194.

(24) ينظر: شرح فتح القدير للكمال بن الهمام: جـ 4. ص275. ط: مصطفى البابي الحلبي، والهدية المرغناني: جـ 2. ص139. بهامش شرح فتح القدير. ط: مصطفى البابي الحلبي ومنح الجليل شرح مختصر خليل للشيخ عليش: جـ 1. ص756، والمهذب للشيرازي: جـ 2. ص263. ط: مصطفى البابي الحلبي، والأحكام السلطانية للماوردي: ص51. ط: مصطفى البابي الحلبي، والمغني لابن قدامة: جـ 10. ص18، 19. ط: مطبعة الفجالة.

ٱلْخَآئِنِينَ﴾[25]. وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[26].

وإن كانوا مسالمين لا يُعتدى عليهم، وتجوز مسالمتهم، كما يجوز التعامل معهم في الأمور الدنيوية في غير تبعية ولا إذلال ولا إعطاء للدنية من الدين. قال بذلك محمد رشيد رضا[27] والطاهر بن عاشور[28] والمراغي[29] وعلي السايس[30] وغيرهم.

أما إذا كانوا محاربين وجب على المسلمين أن يحاربوهم، وهم ـ أي المسلمون ـ في هذه الحالة ليسوا إرهابيين؛ لأن هذا هو الجهاد الذي شرعه الله وأوجبه عليهم.

وخلاصة القول أن الكفر ليس هو علة القتال، وإنما محاربة أهل الكفر للمسلمين، أو المظاهرة على محاربتهم هي العلة؛ لأن السلم هو الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم. قال بذلك: الحنفية[31] والمالكية[32] وغيرهم من العلماء.

ولم يكتف الإسلام بتحريم الاعتداء على النفس بل حرم على المؤمن أن يُرَوِّع أخاه المؤمن. أخرج أبو داود في سننه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن النبي ﷺ قال: «**لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً**»[33].

4 ـ **الدفاع عن النفس ليس إرهاباً**. دفاع المؤمن عن نفسه، أو ماله، أو

---

(25) سورة: الأنفال، الآية: 58.

(26) سورة: التوبة، الآية: 4.

(27) ينظر: تفسير المنار: محمد رشيد رضا. جـ 3. ص277 ـ 282. ط: دار المعرفة الطبعة الثانية.

(28) ينظر: التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور. المجلد الثالث. الجزء الثالث. ص215 ـ 220. ط: الدار التونسية للنشر والتوزيع.

(29) ينظر: تفسير المراغي: جـ 1. ص136، 137. ط: دار الفكر. الطبعة الثالثة.

(30) ينظر: تفسير آيات الأحكام: محمد علي السايس. جـ 2. ص5 ـ 8. ط: محمد علي صبيح.

(31) ينظر: شرح فتح القدير للكمال بن الهمام. جـ 5. ص452، 453.

(32) ينظر: الشرح الصغير للدردير بهامش بلغة السالك: جـ 1. ص356. ط: دار المعرفة.

(33) سنن أبي داود: جـ 4. ص301. ط: دار الفكر.

عرضه، وغير ذلك لا يعتبر إرهاباً، وإنما هو عمل مشروع يثاب عليه، وتسقط عنه المسؤولية الجنائية؛ لأنه يعتبر في حالة دفاع شرعي، فإذا قتل المعتَدَى عليه المعتدي لا يقتص منه، وإذا قُتل المعتدى عليه كان شهيداً، شريطة أن يكون في حالة دفاع شرعي، وأن يكون الاعتداء عليه واقعاً بالفعل، وأن يدفع بالأخف فالأخف[34]، وغير ذلك من الشروط التي اشترطها الفقهاء في دفع الصائل. ويستدل على ذلك بما يلي:

من القرآن: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[35].

من السنة: أخرج أحمد ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «**فلا تعطِهِ مالك**»؛ قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «**قاتله**»، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «**فأنت شهيد**» قال: أرأيت إن قتلتُه؟ قال: «**هو في النار**»[36]. وأخرج أحمد عن سعيد بن زيد: أن رسول الله ﷺ قال: «**من قُتِلَ دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتِلَ دون دينه فهو شهيد، ومن قُتِلَ دون أهله فهو شهيد**».

5 ـ **الجهاد في سبيل الله ليس إرهاباً**. جهاد المؤمن دفاعاً عن الدين والوطن، وإعلاءً لكلمة الله لا يعتبر إرهاباً، بل هو جهاد مشروع، يثاب فاعله في الدنيا بالنصر وعلو الشأن، وفي الآخرة بالشهادة وعلو المنزلة، شريطة أن يوجد ما يوجب الجهاد، كاعتداء الكفار على المسلمين، أو مظاهرتهم على محاربتهم ـ أي مساعدتهم لمن هم في حالة حرب مع المسلمين ـ كما يشترط في المجاهد المسلم أن يخلص نيته في الجهاد لله، وأن يتجرد من الأهواء

(34) ينظر؛ العقوبات الشرعية: وهبة الزحيلي. ص208، 209. ط: كلية الدعوة الإسلامية.

(35) سورة: البقرة، الآية: 194.

(36) صحيح مسلم بشرح النووي: جـ 1. ص821. حديث رقم: 353. ط: الغد العربي. الطبعة الأولى.

والأغراض الشخصية، وأن يتخلق بالفضيلة، وأن يتجنب التشفي والانتقام، وأن يجعل جهاده في سبيل الله[37]، ومما يستدل به على ذلك ما يلي:

أخرج البخاري في صحيحه، عن أبي موسى الأشعري أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذِّكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانُه، فمن في سبيل الله، قال عليه الصلاة والسلام: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[38]. وأخرج النسائي، عن أبي أمامة الباهلي، قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ قال: «لا شيء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لله وابتُغِيَ به وجهه**»[39].

ويجب أن نفرق بين من يقاتل لإرهاب الناس وإخضاعهم لهواه وسلطانه، وسلبهم حقوقهم وإرادتهم، وبين من يجاهد دفاعاً عن نفسه، أو ماله، أو وطنه، أو عرضه، أو دينه. وبعبارة أخرى يجب أن نفرق بين من كان قتاله غير مشروع، وبين من كان في حالة جهاد مشروع. فمن كان قتاله غير مشروع، فهو الإرهابي؛ لأنه هو الذي يروع الآمنين ويظلمهم ويسلبهم حقوقهم بغير حق، أما من كان جهاده مشروعاً فهو ليس إرهابياً؛ لأنه في حالة دفاع مشروع لدفع الظلم ورد الاعتداء. وفرق بين قتال يفرض الظلم، وبين قتال يدفع الظلم، والمؤمن الصادق في إيمانه لا يظلم، ولا يفرض الظلم على الناس بالقهر، بل يعدل ويدفع الظلم بالقوة؛ لأن الجهاد المشروع هو ما كان لله، وفي سبيله.

6 ـ **الجهاد في الإسلام يقوم على العدل والفضيلة لا على الظلم والإرهاب**: شرع الجهاد في الإسلام لتحقيق العدل والأمان، والسلم والسلام، لبني الإنسان عامة، وللمسلمين خاصة. ولم يشرع لمجرد سفك الدماء،

---

(37) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن للطبري: جـ 2. ص34. دار المعارف، وتفسير المنار: محمد رشيد رضا.

(38) صحيح البخاري: جـ 4. ص24، 25. باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

(39) سنن النسائي: جـ 6. ط: دار الفكر.

واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وإذلاله والتحكم فيه، لذا فالمسلمون لا يلجؤون إلى الجهاد إلا إذا اضطروا إليه، وتعيَّن وسيلة وحيدة لدفع العدوان.

وقد أمر الإسلام المجاهدين بالعدل، والتخلق بالفضيلة، ونهاهم عن التشفي والانتقام، والإسراف في القتل، وقتل من لا يقاتل، وإتلاف الحيوانات، وقطع الأشجار والثمار، وتخريب العمران.

كما حرم السلب والنهب، وانتهاك الأعراض، وحرمة الإنسان حياً كان أو ميتاً، فأمر بدفن القتلى من الأعداء، وحسن معاملة الأسرى، وحرم الإجهاز على الجرحى.

كما رغب في السلم إذا جنح إليه الأعداء، حقناً لدماء بني الإنسان عامة، والمسلمين خاصة.

وإذا كان المسلمون يجاهدون لنشر الحق والعدل بين الناس، فإن غير المسلمين يقاتلون ظلماً وعدواناً لتوسيع ملكهم، وتثبيت سلطانهم، واستعبادهم الإنسان وتسخيره لخدمة أغراضهم وأهدافهم. وإذا كان المسلمون يتخلقون بالفضيلة في جهادهم، فإن غير المسلمين يسفكون الدماء، ويسلبون الأموال، وينتهكون الأعراض، وحرمة الإنسان، ويستحِلُّون لأنفسهم كل ما يشبع رغباتهم، ويحقق لهم أهدافهم. وإذا كان المسلمون لا يسرفون في القتل، فإن غير المسلمين يقيمون المذابح التي تراق فيها الدماء، ويمثلون بجثث القتلى، ويقومون بالقتل الجماعي للأطفال والنساء، وغيرهم من الأبرياء لإدخال الرعب في قلوب الناس، ويهلكون الحرث والنسل، ويسعون في الأرض فساداً.

وبعد هذه المقابلة بين الحرب في الإسلام، والحرب عند غير المسلمين. نقول: فمن الإرهابيون إذاً؟ من كان شعارهم في جهادهم العدل والفضيلة واحترام آدمية الإنسان، أم من كان شعارهم القوة وقهر الشعوب وإذلال الإنسان. من كان جهادهم لنشر العدل ودفع الظلم، أم من كان حربهم لفرض الظلم وتثبيت العدوان؟ من كان جهادهم لرفع راية الإسلام وحماية المسلمين، أم من كان قتالهم للقضاء على الإسلام والمسلمين.

هذا قليل من كثير، فالعداوات التي يوجهها أعداء الإسلام للمسلمين

بصفة عامة، وفي هذه الأيام بصفة خاصة كثيرة. وذكرها بالتفصيل يحتاج إلى مؤلفات.

والغرض الذي أقصده وأجتهد في تركيز الأضواء عليه هو بيان أن ما أخبر به النبي ﷺ في الحديث الذي نحن بصدد دراسته قد وقع بالأمة بسبب ضعف الحمية الإيمانية في نفوس أبنائها، ولا مخرج لها إلا بالتمسك بالكتاب، والسنة، والسير على هدي رسول الله ﷺ، فانظر ماذا حل بالأمة العربية في العقد العاشر من القرن العشرين، فقد فرض الحصار على بعضها، كما صنفت دول أخرى، ومنظمات ضمن الإرهاب، تمهيداً لتقنين فرض الحصار الكامل عليها.

أما إسرائيل، فعلى الرغم من احتلالها لدولة فلسطين، وتشريد شعبها، وإقامة المذابح والقتل الجماعي، واحتلالها جنوب لبنان، واعتداءاتها الوحشية المتكررة عليه، وقتل أبنائه العزل من السلاح، مثل ما وقع في مذبحة (قانا) سنة 1996ف، وامتلاكها الأسلحة الفتاكة بأنواعها المختلفة، أقول: على الرغم من هذا كله لا توصف بالإرهاب، وتُقدم لها المساعدات، التي تمكنها من واصلة اعتداءاتها على العرب، والتفوق عليهم في السلاح، وكل ما تقوم به يعتبر عملاً مشروعاً، ومن يقاوم احتلالها، ويرد اعتداءاتها يعتبر إرهابياً.

لا سبيل للكافرين على المؤمنين

دل قوله ﷺ (يوشك الأمم أن تداعى عليكم. . . .) على أن الأمم تتداعي على المسلمين، وسيكون لهم الغلبة عليهم حيث إن المسلمين يكونون غثاءً كغثاء السيل، ويضعفون عن مواجهة أعدائهم، وهذا في ظاهره يعني استعلاء الكافرين على المسلمين؛ لأن الغلبة ستكون لهم عليهم، وهذا يتنافى مع قول الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، فقد أبانت هذه الآية أن الاستعلاء والغلبة يكونان دائماً للمؤمنين على الكافرين.

ولدفع هذا التعارض نقول: إن القرآن الكريم، والحديث النبوي يؤيد بعضه بعضاً، فالآية القرآنية قد أبانت أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين

سبيلاً، ما كان المؤمنون ملتزمين بشرع الله، مطبقين له، عند ذلك تكون الغلبة والسيادة لهم، لذا فقد وصفهم الله بالمؤمنين، ولم يصفهم بالمسلمين في قوله تعالى ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، ولم يقل، ولن يجعل الله للكافرين على المسلمين سبيلاً. وهذا يعني أنهم ما كانوا مؤمنين حقاً، فالسبيل لهم على الكافرين، أما إذا ضعف إيمانهم وكانوا مسلمين منتسبين للإسلام، غير مؤمنين صادقين في إيمانهم، وبعدوا عن شريعة ربهم، فالسبيل للكافرين عليهم. وهذا ما أبانه النبي في قوله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تتداعى عليكم....**» فقد شخص الداء قبل وقوعه، وصرف الدواء؛ لتأخذ الأمة بأسباب الوقاية، فتتمسك بدينها لتكون الغلبة لها، وبذلك تكون السنة مبينة للقرآن الكريم، فالقرآن قد أبان أن السبيل يكون للمؤمنين على الكافرين ما كانوا مؤمنين، والسنة قد أبانت أنَّ الأمة إذا ضعف إيمانها تداعت الأمم عليها، وكان السبيل للكافرين.

وها أنا أضع بين يدي القارىء الكريم خلاصة ما قاله بعض المفسرين في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، بعد أن وضعت بين يديه الدراسة التحليلية لقول رسول الله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم...**» لتكتمل لديه المعرفة وليكون على علم تام، ويقين مطلق بأنه لا تعارض بين الكتاب والسنة، ولا بينهما وبين الواقع المعاش للأمة الإسلامية، فالسنة مبينة للقرآن والقرآن مؤيد للسنة، والواقع المعاش للأمة الإسلامية دليل واقعي، وترجمة فعلية على صدق ما أخبر به القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة. وهذا كله إن دل على شيء، فإنما يدل على صدق رسول الله ﷺ، وأن القرآن كلام الله وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾(40).

وخلاصة ما جاء في تفسير هذه الآية ما يلي:

1 ـ لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً، أي حجة، يوم القيامة،

(40) سورة: النجم، الآية: 4.

وعليه فالآية خاصة بالآخرة، بدلالة قوله تعالى في صدر هذه الآية: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.

2 ـ الآية عامة. وعليه فالمعنى، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين حجة في الآخرة ولا سبيلاً في الدنيا يستأصلون به دولة المؤمنين، وإن حقق الكفار انتصاراً في جولة من الجولات، فالنصر دائماً لله وللمؤمنين.

3 ـ لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً، إلا إذا تواصوا بالباطل، وتناهوا عن المعروف، وقاتل بعضهم بعضاً وسبا بعضهم بعضاً، وهذا هو ما حل بالمسلمين في هذه الأيام.

4 ـ لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً، وما تفوق الكافرون على المؤمنين، إلا لأنهم أخذوا بالأسباب، فصاروا أعلم بسنن الله الكونية، وقصر المسلمون في ذلك.

5 ـ نصر الله للمؤمنين، إنما يكون بنصرهم دينه، وتمسكهم به، وليس لمجرد انتمائهم للإسلام، مع عدم السير على منهجه وتركهم الأخذ بالأسباب. وما حققه الكافرون من انتصارات على المسلمين إنما هو راجع لأخذهم بأسباب النصر الظاهرة، لا لمجرد أنهم كفار؛ لأن نصر الله لا يكون إلا للمؤمنين ما كانوا أهلاً لنصره، فالله ناصر دينه، وينصر بدينه من آمن به، وصَدَق في إيمانه، وسار على منهجه.

6 ـ إذا كان واقع المسلمين في هذه الأيام يعتبر ترجمة عملية ودليلاً صادقاً على صدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان في حديث «يوشك الأمم أن تداعى عليكم...» فإن قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ يعتبر بمنزلة الإخبار من الله على صدق ما أخبر به النبي ﷺ، فكل من الآية والحديث يصدِّق بعضه بعضاً. فالآية قد أفادت أنه لا سبيل للكافرين على المؤمنين ما كانوا مؤمنين صادقين في إيمانهم، آخذين بأسباب نصرهم، وإنما يكون للكافرين على المؤمنين سبيل، إذا أعرض المؤمنون عن دينهم، وقصروا في الأخذ بأسباب نصرهم، والواقع الفعلي للأمة الإسلامية، يخبر أنها قد أعرضت عن شرع ربها، وقصرت في الأخذ بأسباب

نصرها، فحق عليها ما أخبر به النبي ﷺ في قوله: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم. . . .**» فتداعت عليها الأمم، وقسمتها حسب أهوائها، وجعلتها لقمة سائغة بين أيديها، وقذف الله الرعب في قلوب المؤمنين، ونزع المهابة من قلوب الكافرين، وبذلك تحقق في المسلمين ما أخبر به الكتاب والسنة.

7 ـ نصر الله للمؤمنين، لا يكون لمجرد انتمائهم للإسلام، دون الأخذ بكل الأسباب التي تجعلهم أهلاً لتحقيق نصر الله على أيديهم، وإنما يكون للمؤمنين الصادقين، فالله ينصر دينه بالقلة المؤمنة، لا بالزبد الذي يذهب جفاءً، ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح.

8 ـ في الآية وعد من الله لعباده المؤمنين، بأنه لن يجعل للكافرين عليهم سبيلاً، وهذا يعني أنه ناصرهم ما كانوا مؤمنين؛ لأن وعد الله حقيقة ثابتة، وأمر قطعي لا شك في تحقيقه في كل زمان ومكان، فنصر الله عام لجميع المسلمين على مر العصور والأزمان. فإذا دارت الدائرة عليهم وحقق الأعداء انتصاراً في جولة من الجولات، فإن ذلك لا يعني أن الله مخلف وعده، وإنما ذلك راجع إلى ما حل بالمسلمين من ضعف في الدين، وتقصير في الأخذ بالأسباب التي تجعلهم أهلاً لنصر الله لهم، ويوم أن يعودوا إلى دينهم، ويأخذوا بأسباب نصرهم يتحقق فيهم وعد الله ونصره المشروط بقوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[41].

سألت ربي أن لا يهلك أمتي

عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله زَوَى ليَ الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنَّ أمتي سيبلُغُ مُلكها مَا زُوِي لي منها، وأُعطيت الكنزين الأحمَرَ والأبيض، وإني سألت ربي لأُمتي أن لا يُهلكها بسنة عامَّةٍ، وأن لا يسلط**

(41) سورة محمد الآية: 7 ـ وللوقوف على نص ما قاله المفسرون ينظر: أحكام القرآن للقرطبي: جـ 5. ص419، 420. ط: دار إحياء التراث العربي، وتفسير الطبري: جـ 4. الجزء الخامس. ص213 ـ 214. ط: دار المعرفة، وتفسير المنار: محمد رشيد رضا. جـ 5. ص465 ـ 467. ط: دار المعرفة، والتحرير والتنوير للطّاهر بن عاشور: جـ 4. ص238. ط: الدار التونسية، وتفسير ابن كثير: جـ2. ص416 ـ 417. ط: دار الأندلس.

عليهم عدّواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضَتَهُم، وإن رَبّي قال: يا محمد إني إذا قضيتُ قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ـ أو قال من بين أقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً»، أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد وابن ماجه وابن حبان ومسلم واللفظ له[42]. عن عامر بن سعيد، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية. حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه ودعا ربه طويلاً. ثم انصرف إلينا. فقال ﷺ: **«سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة، فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها «أخرجه مسلم[43].**

وخلاصة القول في مدلول هذين الحديثين ما يلي:

أولاً: الحديثان يحملان البشارة والتحذير معاً وبيان ذلك ما يلي:

1 ـ البشارة بأن الإسلام سينتشر، ويعم نوره أرجاء الدنيا، وأن ملك المسلمين سيعم المشرق والمغرب، وأن أمة الإسلام لن تهلك على يد عدوها، ولن يهلكها الله بالغرق، ولا بالخسف، ولا بالريح، ولا بعذاب يأتيها من فوقها أو من تحتها، كما وقع للأمم السابقة، فقد أهلك الله من كفر بنبي الله نوح بالطوفان، وأهلك ثموداً بالطاغية، وأهلك عاداً بريح صرصر عاتية، ودمر الأرض بقوم لوط، أما أمة الإسلام فقد استجاب الله لسؤال رسوله ﷺ السابق ذكره **«وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكهم بسنة عامة»** فاستجاب الله لرسوله ﷺ، كما جاء في الحديث **«وإنّ ربي قال: يا محمد: إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ عامة وأن لا أسلط**

---

(42) صحيح مسلم بشرح النووي: جـ 8. ص305. حديث رقم 7118. كتاب الفتن وأشراط الساعة باب هلاك الأمة بعضها بعض. ط: دار الغد العربي. الطبعة الأولى.

(43) المرجع السابق ص306. حديث رقم 7120.

عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها».

أما انتشار الإسلام واتساع مُلك المسلمين فيفهم من قول النبي ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وأن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض» فالرسول ﷺ أخبر بأنه رأى مشارق الأرض ومغاربها، وأن ملك أمته سيبلغ ما رأى، وهذا يعني أن ملك المسلمين سيمتد شرقاً وغرباً. والمراد بالكنزين الشام والعراق، وفي هذا دلالة على المد الإسلامي، وسيطرة المسلمين على زمام الحكم في البلاد وسقوط إمبراطورتي الفرس والروم. وإذا أريد بالكنزين الذهب والفضة فهذا يدل على أن بلاد الإسلام بلاد خير وبركة، وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ، فامتد الإسلام، وعم نوره، وتمت الفتوحات، واتسع ملك الدولة الإسلامية، وخضع الجميع لسلطانها، وأيضاً فبلاد الإسلام بلاد خير وبركه، فيها الأنهار، وتسقط عليها الأمطار، وفيها الكنوز الدفينة، وغير ذلك، فوسائل الحياة جميعها موجودة بأرض الإسلام إذا أحسن المسلمون استغلالها، وأخذوا بالأسباب، ارتفع مستواهم الاقتصادي، وكان ما عداهم تُبعاً لهم، أما إذا قصروا في الأخذ بالأسباب، فإن خيرات بلادهم ستؤول إلى أعدائهم، ويصبح المسلمون تَبعاً لهم.

2 ـ التحذير: في الحديثين السابق ذكرهما تحذير للمؤمنين من وقوع الفرقة بينهم، ومقاتلة بعضهم بعضاً، وأسر بعضهم بعضاً وأن يكون بأسهم بينهم شديداً؛ لأن هذا يؤدي إلى هلاكهم، وهذا يفهم من قول الله عز وجل لرسوله الكريم ﷺ في الحديث السابق ذكره (حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً) وفي هذا دلالة على أنه ستقع فتن بين المسلمين، تمزق وحدتهم، وتقسمهم فرقاً وأحزاباً، وأنهم سيتقاتلون فيما بينهم، ويكون بأسهم بينهم شديداً، وذلك ليس قاصراً على زمان دون زمان، ولا على قوم دون آخرين، وإنما يكون إذا ضعف الإيمان، وضعفت الحمية الإسلامية، وأعرض المسلمون عن شرع الله، فالداء منهم والدواء عندهم، داؤهم الإعراض عن شرع

الله، ودواؤهم الالتزام بشرع الله، وتطبيقه سلوكاً ومنهجاً، وواقع المسلمين في هذه الأيام أصدق برهان على ما أخبر به النبي ﷺ في الحديثين السابق ذكرهما، فقد أصبح الإسلام شعاراً يرفع، وليس منهجاً وسلوكاً، وتقاتلوا فيما بينهم، وأصبحوا أشداء على أنفسهم، رحماء بأعدائهم، وهذه حالة مَرَضية لا علاج لها إلا بالعودة إلى الإسلام عقيدة ومنهجاً وسلوكاً.

ثانياً: **أمة الإسلام**: هي خاتمة الأمم التي بعث الله إليها رسله، فالرسول محمداً ﷺ، خاتم الرسل ورسالته خاتمة الرسالات السماوية، وأمته باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لأن الله سبحانه وتعالى تكفل بحفظ القرآن، بدلالة قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(44)، وحفظ القرآن يستلزم حفظ السنة، لأنها المبينة للقرآن، وحفظ المبيَّن، وهو القرآن، يستلزم حفظ المبيِّن، وهي السنة، وحفظ الكتاب والسنة يعين حفظ الله للدين الإسلامي، وحفظ الله لدينه يستلزم حفظ الله للأمة الإسلامية، لأن بقاء الدين يستلزم وجود من يؤمن به، فقد سأل النبي ﷺ ربه في الحديث السابق ذكره أن لا يهلك أمته بالسنة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيهلكهم فاستجاب الله لدعوة نبيه ﷺ، وفي هذا دلالة على بقاء الأمة الإسلامية وحفظ الله لها من التدمير والهلاك.

ثالثاً: عِزُّ أمة الإسلام ومجدها وحريتها، إنما تكون بتطبيقها لشرع ربها، وأخذها بالأسباب التي تجعلها أهلاً لنصر الله لها، حيث إن الله قد تكفل بنصرة من يؤمن به، وينصر دينه.

أما إذا قصرت الأمة في الأخذ بأسباب نصر الله لها، وتركت السير على منهج رسولها، فإن الله يكلها إلى نفسها، وينزع المهابة من صدور أعدائها، فتضعف عن مواجهته فتدور الدائرة عليها، لأنها ليست أهلاً لنصر الله لها، وعودة الدائرة على الأمة الإسلامية لا يعني هلاكها؛ لأن ذلك ليس إلا نتيجة الضعف الذي حل بها، بسبب بعدها عن شرع ربها، فإذا عادت إلى ربها وقوي

---

(44) سورة الحجر، الآية: 9.

إيمانها، وطبقت شريعة رسولها، وأخذت بالأسباب التي تجعلها أهلاً لنصر الله لها، ونصرها الله على أعدائها.

رابعاً: ما وقع من قتال وقتل وأسر، بين أبناء الأمة الإسلامية على مر العصور والأزمان، إنما هو دليل صادق، على صدق رسول الله ﷺ، فيما أخبر به في الحديثين السابق ذكرهما، فقد ورد فيهما ما يفيد أنه سيقع بين المسلمين اختلافات تؤدي إلى أن يعادي بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً ويأسر بعضهم بعضاً، وأن هذا قد يؤدي إلى هلاك الأمة ليكون ذلك زجراً للمسلمين فلا يقدموا على القتال والتدمير والأسر فيما بينهم، وبما أنه قد سبق في علم الله أن هذا سيقع - أي مقاتلة المسلم المسلم - فقد أبان في قرآنه الحكم الذي ينبغي أن يكون، وهو المصالحة بين المتقاتلين، فإن بغت إحدى الطائفتين على الأخرى وجبت مقاتلة الفئة الباغية، حتى تكف عن بغيها درءاً لشرها وكفاً لبغيها، أما إذا قصرت الأمة في ذلك - أي الصلح بين المتقاتلين ومقاتلة الفئة الباغية، - وانقسمت على نفسها، ووسعت دائرة الخلاف بينها، وناصرت المقاتلين، فإنها بذلك تكون قد خالفت أمر الله، وينطبق عليها ما جاء في الحديثين السابق ذكرهما فيقتل بعضهم بعضاً ويأسر بعضهم بعضاً.

خامساً: رحمة النبي ﷺ بأمته، حيث دعا ربه ألا يهلكها، وألا يسلط عليها عدواً يكون هلاكها على يديه. وفي الحديثين دلالة على علو منزلة النبي ﷺ عند ربه، وفضل أمته، حيث استجاب الله لدعوة نبيه وحفظ أمته من الهلاك والدمار.

معية الله للمؤمنين

أرسل الله لعباده رسلاً مبشرين ومنذرين، حملوا مشعل الهداية والنور، وأضاءوا للناس طريقهم إلى ما فيه صلاحهم في دنياهم، وفلاحهم في آخرتهم، فمن آمن بهم، والتزم بشرعهم، وسار على هديهم، وصدق في إيمانه، وأخذ بالأسباب التي يسرها الله له، عمه الله بفضله، وغمره برحمته، وتولى هدايته وإعانته والدفاع عنه ونصره في جميع ميادين حياته.

وولاية الله لعباده، تعني هدايتهم إلى الحق، وإلى ما فيه سعادتهم في

الدنيا والآخرة، وإعانتهم على فعل الخير، وتيسير أسباب الحصول عليه، ونصرتهم في جميع ميادين حياتهم، فيعمهم بالبركات، ويتولى الدفاع عنهم. ولبيان ولاية الله للمؤمنين، نذكر على سبيل المثال، لا الحصر ما يلي:

معية الله لعباده في الميدان الاقتصادي

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾(45).

بالنظر في الآية السابق ذكرها يتبين لنا أنه بالسعي والعمل يصل إلى المؤمنين ما قدر لهم من رزق في علم ربهم، وبالتقوى يضع الله البركة في أرزاقهم، ويضع القناعة والرضا في قلوبهم، وييسر لهم الأسباب ويمنع عنهم الموانع والآفات، وبذلك ترقى الأمة حضارياً، وتتقدم في جميع ميادين حياتها فلا تكون تبعاً لغيرها، وإنما تحقق لنفسها الاكتفاء الذاتي؛ الأمر الذي يجعلها تستقل اقتصادياً، ولا يكون لها ذلك إلا بصدق إيمانها وولائها لربها.

معية الله لعباده في الجانب العسكري

معية الله للمؤمنين في هذا الجانب، إنما تكون بإنزال السكينة في قلوبهم، والطمأنينة على نفوسهم، وقذف الرعب في قلوب أعدائهم.

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ * سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۚ﴾(46).

وقال تعالى: مصوراً معيته للمؤمنين في غزوة حنين ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾(47).

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(48).

---

(45) سورة الأعراف، الآية: 96.

(46) سورة آل عمران، الآية: 150، 151.

(47) سورة التوبة، الآية: 26.

(48) سورة الفتح، الآية: 4.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[49]

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[50]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾[51].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[52]

من الآيات السابق ذكرها يتبين لنا ما يلي:

1 ـ أن معية الله للمؤمنين في الميدان العسكري إنما تتحقق إذا كانوا أهلاً لنصر الله لهم وذلك يكون بصدق إيمانهم، ونصرتهم لدين ربهم، وسيرهم على منهجه، وتطبيقهم لشرعه، مع أخذهم بالأسباب التي يسرها الله لهم. عند ذلك تتحقق معية الله فينصرهم على أعدائهم بقذف الرعب في قلوبهم وإنزال السكينة والطمأنينة على نفوس المؤمنين، وإن قل عددهم وعتادهم؛ لأن نصر المؤمنين لا يكون بكثرة عددهم وعتادهم، وإنما يكون بنصر الله لهم. وهذه حقيقة ثابتة بالنص القرآني، وباقية إلى قيام الساعة لأنها ـ أي معية الله للمؤمنين ـ ليست قاصرة على زمان دون زمان، ولا على قوم دون آخرين، وإنما عامة لكل المؤمنين في كل زمان وفي أي مكان، باقية ما بقيت السماوات والأرض شريطة أن يكونوا أهلاً لنصر الله لهم.

2 ـ ولاية الله للمؤمنين، ونصرته لهم، ودفاعه عنهم، وغير ذلك مما ورد في الآيات السابق ذكرها عامة تشمل كل المؤمنين في كل زمان وفي أي مكان، ما كانوا مؤمنين ناصرين لدين ربهم، ولم يرد ما يخصص العموم الوارد في الآيات القرآنية، وبذلك تكون معية الله للمؤمنين عامة.

---

(49) سورة محمد، الآية: 7.

(50) سورة الأنفال، الآية: 10.

(51) سورة الحج، الآية: 38.

(52) سورة الروم، الآية: 47.

3 ـ قذف الرعب في قلوب الكافرين عام، يشمل كل كافر، ولم يرد ما يخصصه، وعلى هذا؛ فأي كافر في أي زمان وفي أي مكان، يعلن الحرب على المؤمنين يقذف الله الرعب في قلبه، فتضطرب نفسه ويهزم بمعية الله للمؤمنين.

4 ـ قد يتأخر نصر الله لعباده، ويشتد الكرب عليهم، وهذا لا يعني أن الله تخلى عن ولايته ونصرته لهم، وإنما قد يكون ذلك ابتلاءً وتمحيصاً، ليميز الخبيث من الطيب، وإعدادهم إعداداً يجعلهم أهلاً لحمل راية الإسلام، وتحقيق الغاية التي من أجلها استخلفهم الله في الأرض، فيعوِّدهم على الجلد والصبر، والأخذ بالأسباب، وتحمل المشاق، وعدم الميل إلى كل سهل لين رخي. وبسبب هذا التمحيص يظهر قوي الإيمان من ضعيفه، ويزداد المؤمن في الأجر، وعلو المنزلة عند ربه.

وقد يكون سبب الابتلاء راجعاً إلى خلل وقع في الصف الإسلامي، فيكون ذلك لأجل تربيتهم وإعلامهم، وتحذيرهم، وتنبيههم، بأن نصر الله لا يكون إلا لمن صدق إيمانهم، وخلصت، نياتهم، وصفت نفوسهم ليعودوا إلى صوابهم، ويرجعوا إلى ربهم، فإن فعلوا ذلك، كان النصر حليفهم، وتحققت معية الله لهم. وما وقع للمسلمين في غزوة أحد حين خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ، وتركوا أماكنهم، ونزلوا لجمع الغنائم[53]، وكذلك ما وقع في غزوة حنين حين أعجبتهم كثرتهم[54]، فدارت الدائرة عليهم في الغزوتين، وخسروا جولة من جولات القتال، فلما رجعوا إلى صوابهم وعادوا إلى ربهم ثبَّت الله أقدامهم، وأنزل السكينة على نفوسهم، وحقق لهم النصر على أعدائهم، إلا دليلاً على ذلك.

معية الله لعباده في المجال السياسي

مما لا شك فيه أن الأمة إذا تقدمت حضارياً واستقلت اقتصادياً، وانتصرت عسكرياً، وتخلصت من ذل التبعية لأعدائها، وسايرت التقدم

---

(53) السيرة النبوية: لابن كثير، جـ3. ص: 49، 50.

(54) تفسير القرطبي: ص: 2939. ط: مطبعة الشعب بمصر، والكشاف للزمخشري: جـ2. ص: 182.

الحضاري وكانت لها قوة تدافع عنها، حققت انتصاراً في الميدان السياسي؛ لأنها تكون حرة في إرادتها مستقلة في ذاتها، يسمع لقولها، ويهابها أعداؤها، وكان لها العزة والسيادة والصدارة والريادة؛ لأن لها قوة وسلطة، يتعامل معها الجميع باحترام وتقدير، ويمد لها يد المسالمة. والأمة الإسلامية إنما تنتصر في جميع ميادين حياتها بمعية الله لها، والانتصار في الجانب السياسي لا يكون إلا بعد الانتصار في الجانب العسكري، والاقتصادي، ولا يكون للأمة ذلك إلا بمعية الله لها، وهذا يعني أن أمة وليها الله سيكون النصر حليفها وتتعامل مع الجميع من منطلق الإيمان وقوة المؤمن معاملة العزيز وليس معاملة الذليل؛ لأن الله كتب العزة للمؤمنين والمذلة للكافرين.

المنتسبون إلى الإسلام لا تتحقق لهم معية الله

بعد أن تكلمنا عن عباد الرحمن، وولاية الله لهم في جميع ميادين حياتهم، ننتقل إلى الحديث عن المنتسبين إلى الإسلام، وهم المسلمون بالتبعية لآبائهم ولوطنهم، لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، غير جادين في الالتزام بتعاليمه وشرائعه، يفصلون بين الدين والدنيا. أو بمعنى آخر بين العبادة والسلوك، تركوا ولاية الرحمن، واتخذوا الشيطان لهم ولياً، يعرضون عن طاعة ربهم، ويتبعون شيطانهم وأهواءهم، يحبون الحياة الدنيا وشهواتها وملذاتها، ويفضلونها على الآخرة، فهي ـ أي الدنيا ـ مأربهم وهدفهم وغايتهم، فهؤلاء من عبيد الله وليسوا من عباده. لا يزيدون الأمة إلا عدداً، ولا تحقق لهم معية الله. وفرق بين من يزيد أمته قوة، وبين من يزيد أمته عدداً، فالذي تزداد به الأمة قوة، هو حامي حماها، والمدافع عنها، والذي يزيدها عدداً لا يأتي منه الخير، ولا يتحقق النصر على يديه.

وأمة أبناؤها ينتسبون إلى الإسلام انتساباً وتزداد بهم عدداً، لا يتحقق لها نصر الله في جميع ميادين حياتها، وهي بكثرة عدد أبنائها غثاء كغثاء السيل، والله ينصر دينه بالقلة المؤمنة، لا بالزبد الذي يذهب جفاء ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح، وبيان ذلك ما يلي:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾[55] وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[56].

من الآيتين السابق ذكرهما يتبين لنا أن من انسلخ من ولاية الله، واتخذ الشيطان له ولياً، حقَّتْ عليه المذلة والمهانة، وخسر دنياه وأخراه، لانغماسه في الملذات والشهوات.

وأمة هذا حال أبنائها، تكون أمة ضعيفة ذليلة مهانة تابعة لغيرها، لا ترقى حضارياً ولا اقتصادياً، ولا تحقق نصراً عسكرياً ولا سياسياً، لأنها تركت ولاية الله، وليست أهلاً لمعيته وعونه ونصره وهدايته.

2 ـ **في الميدان الاقتصادي**: ينزع الله البركة من أرزاق الأمة، ويجعل الجشع والطمع في نفوس أبنائها، فلا يكفي الرزق حاجتها، وتعيش عيشة الضنك والقلق والاضطراب، قال تعالى، بعد أن ذكر المؤمنين المتقين، وما يغمرهم به من بركات في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وتحدث في المقابل عن الذين ينشغلون بالنعمة عن المنعم، ولا يتقون ربهم فقال: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[57]، وقال مبيناً حال هذا الصنف من الناس: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[58]. دلت الآيتان السابق ذكرهما على أن من حُرم معية الله بسبب موالاته للشيطان وتركه ولاية الرحمن، لا يرقى اقتصادياً وإن كثر المال بين يديه؛ لأن المال يصبح نقمة ووبالاً عليه، ويكون سبب تعاسته وشقائه، وليس سبب سعادته وهنائه، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟

---

(55) سورة النساء، الآيات: 119 ـ 121.

(56) سورة الأعراف، الآية: 27.

(57) سورة الأعراف، الآية: 96.

(58) سورة طه، الآيات: 124 ـ 126.

يَكْسِبُونَ﴾ ولم يقل لحجبنا عنهم أرزاقهم، للدلالة على أن المُعْرِضَ عن ذكر الله يأتيه رزقه المقدر له من الله، إذا سعى وأخذ بالأسباب، غير أن الله ينزع البركة مما اكتسبت يداه، والقناعة والرضا من قلبه فيقلق ويضطرب في حياته، وتلك هي حياة الضنك المذكورة في قوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، فمن خسر معية الله انتقم الله منه وجعل نعمته نقمة، وليس أشقى ممن يحيا حياة الضنك والقلق، ولو كان يملك من المال ما لا يحصى ولا يعد.

وبالإضافة إلى منع البركة من الأرزاق، ونزع القناعة من القلوب فالله يسلط عليهم الآفات، ويحول النعمة عليهم نقمة، ففرق بين مطر ينزل من السماء تحيا به الأرض، وتُنبت، وبين مطر ينزل من السماء فيتحول سيلاً جارفاً، وبين رياح تكون لواقح، وبين ريح عاصفة، وبين أرض تنبت، وبين أرض ميتة، وغير ذلك مما يطول ذكره، فالقدرة المُسيِّرة للجميع واحدة وهي قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومعيته لعباده المؤمنين تجعل أرضهم تُنبت، وسماءهم تمطر، ورياحهم لواقح.

ومن حُرم معية الله ليس ببعيد أن يُحوِّل الله مطره سيلاً جارفاً، ورياحه ريحاً، وتهب عليه عواصف وزلازل مدمرة، فكل شيء يُحرَّك بالكاف والنون (كن فيكون)، فهو الذي جعل الماء نجاة لموسى وهلاكاً لفرعون، وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وسلب السكين خاصيتها فلم تقطع رقبة إسماعيل، وأهلك ثمود بالطاغية، وعاداً بريح صرصر عاتية.

3 ـ الأمة التي ينتسب أبناؤها إلى الإسلام، ولا تطبق تعاليمه، وتخالف أمر ربها، يضطرب اقتصادها، ويكون حال أبنائها واحداً من اثنين:

الأول: صنف يستمرىء البطالة، ويترك العمل، ويركن إلى التواكل والعجز والكسل، ويجعل التسول المقنَّع وسيلة لحصوله على رزقه، وبذلك يعيش عالة على مجتمعه يزيد في عدده، ويضعف من قوته؛ لأنه يستهلك ولا ينتج.

الثاني: صنف يعمل، وكل ما يعنيه من عمله هو مجرد الالتزام بقانون

الحضور والانصراف وما بين الحضور والانصراف، ليس إلا معطلاً لمصالح الناس، لانعدام الضمير عنده، وضعف إيمانه، وعدم مراقبته لله ـ عز وجل ـ، يرائي الناس في عمله، إذا اقتربوا منه أعلن ولاءه وإخلاصه، وإذا بعدوا عنه سخر منهم، لا يتقن، عمله، ولا يخلص فيه، وبذلك يُدمِّر بعمله ولا يُعمِّر، فينخفض مستوى معيشة الأفراد، وينهار اقتصاد الدولة وتتأخر في جميع مناحي حياتها، ولا تساير غيرها في التقدم الحضاري؛ لأن من يعمل بغير إتقان ولا إخلاص؛ ما ينتجه في الصباح يُدمَّر في المساء، الأمر الذي يجعل المرء يشتري السلعة، لا ليستمتع بها، بل ليبكي على أطلالها.

وأمة هذا حالها تطلب مقومات حياتها من يد غيرها، فيستذلها الآخرون ويستعبدونها؛ لأنها تكون تُبعاً لهم في كل شيء؛ إن شاؤوا أعطوها وإن شاؤوا منعوها. وليس هذا حال عباد الرحمن؛ لأنهم يراقبون الله في عملهم، ويؤدونه بإخلاص وإتقان، فترقى بهم أمتهم؛ لأنهم يعملون ويُنتجون. فالأمة التي تحظى بمعية ربها يبارك الله في أبنائها، فترقى بهم في جميع مناحي حياتها، أما الأمة التي حُرمت معية ربها، ينزع الله البركة من أبنائها فيكونون معاول هدمها، لا قوة بنائها.

4 ـ **في الميدان العسكري**: الأمة التي فقدت معية ربها لا تحقق انتصاراً في الميدان العسكري، وإن كثر عددها وعتادها؛ لأن الله يكلها لنفسها، وينزع المهابة من صدور أعدائها؛ لأنها ليست أهلاً لتحقيق نصر الله لها، لعدم نصرتها لدين ربها، ويقذف الله بالوهن في قلوب أبنائها، فتضعف أمام أعدائها، لانغماسها في حب الدنيا وملذاتها، وكراهيتها للموت في سبيل الله، وعدم مواكبتها التقدم العلمي في الميدان العسكري، حيث الاكتشافات والاختراعات والإبداع الذي يرتقي إليه عقل الإنسان في كل زمان، ويضيف كل يوم الجديد من الأسلحة التي لم تكن معروفة من قبل. وتأخر الأمة في هذا الميدان يجعلها عالة على غيرها، إن شاء أعطاها ما تدافع به عن نفسها، وإن شاء منعها، وبديهي أنه لا يعطيها إلا سلاحاً بطل مفعوله، إذ ليس من المعقول أن يمدها بأحدث ما لديه من أسلحة لتقتله بها، وبذلك يكون ما لديها من سلاح بطل

مفعوله في ميدان القتال قبل استعماله، فلا يحقق لحامله نصراً، وإنما يحقق لبائعه ربحاً وفيراً، فيزداد العدو ثراءً وتزداد الأمة فقراً.

5 ـ **في الميدان السياسي**: الانتصار في الميدان السياسي متوقف على الانتصار في الميدان الاقتصادي والعسكري، فالأمة التي تحقق اكتفاء ذاتياً لنفسها وتملك مقومات حياتها، وتساير غيرها في التقدم العلمي والارتقاء الحضاري، وتملك من القوة ووسائل القتال ما تدافع به عن نفسها، تحقق انتصاراً في الميدان السياسي.

أما الأمة التي ينتسب أبناؤها إلى الإسلام انتساباً، دون تطبيق شرع الله والسير على منهجه، وحُرمت معية الله في الميدان الاقتصادي والعسكري، فإنها لا تحقق انتصاراً في الميدان السياسي؛ لأنها لا تملك مُقوِّمات حياتها، ولا وسائل الدفاع عن نفسها، وإنما تأخذ رغيف خبزها، والسلاح الذي تدافع به عن نفسها، من يد عدوها.

أقول: أمة هذا حالها يستعبدها عدوها، فيستذلها ويسخرها لخدمته وفق أهوائه وأغراضه وأطماعه، ويستنزف خيراتها، فتفقد حريتها واستقلالها وسيادتها، ولا تملك صنع قرارها، بل يسيرها عدوها ويتعامل معه الجميع من منطلق معاملة العزيز للذليل، فالكفار أعزاء بقوتهم، والمسلمون أذلاء بتبعيتهم لأعدائهم، وما حق عليهم ذلك إلا لبعدهم عن شرع ربهم، وتركهم نصرة دينه، فوكلهم الله إلى أنفسهم، وفقدوا معية ربهم، فهانوا على أعدائهم، وتأخروا في جميع مناحي حياتهم.

الخاتمة

وبعد هذه الإطلالة السريعة على الواقع المعاش للأمة الإسلامية في هذه الأيام، وما حل بها من ضعف أدى إلى تداعي الأمم عليها، وتحقق فيها ما أخبر به الكتاب والسنة، نصل إلى خاتمة البحث، لنسجل فيها أهم النتائج المستخلصة منه، فنقول وبالله التوفيق:

1 ـ يُحلِّق هذا البحث بالقارىء في رحلة عقلية حول العالم الإسلامي،

يستقرىء من خلالها الواقع الذي تعيشه الأمة، والحكم عليه بمنظور إيماني، دون تعصب، أو اتباع هوى، أو غرض شخصي، مع ربطه بنصوص الكتاب والسنة.

2 ـ ما جاء في حديث (**يوشك الأمم أن تداعى عليكم**) لا يعني استسلام المسلمين للأمر الواقع، بدعوى أنه ما دام النبي قد أخبر بذلك، فلا بد حتماً سيكون. وكأن هذا قضاءٌ وقدرٌ، وما على المسلمين إلا الرضا والتسليم والخضوع لأعدائهم؛ لأن هذا مذلة ومهانة يأباه الإسلام على معتنقيه، وإنما أخبر النبي ﷺ بذلك ليلفت نظر الأمة، في كل زمان ومكان، إلى التمسك بدينها، والأخذ بكل الأسباب التي تجعلها أهلاً لتحقيق نصر الله على يديها، لئلا ينطبق عليها هذا الحديث، وتقع تحت طائلة الأعداء، وتحقُّ عليها المذلة والمهانة، فكأنه ﷺ شخص الداء، وأرشد أمته إلى الدواء النافع، فمن أخذ به سلم ونجى، ومن قصر في ذلك حق عليه الذل في الدنيا، والعذاب يوم أن يلقى الله، جزاء ما فرط في حق نفسه وفي حق الإسلام.

3 ـ حال المسلمين وواقعهم في هذه الأيام يفسر ما جاء في قوله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم**. .»، فقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، حيث يعيش المسلمون في هذه الأيام فترة من أهم فترات التاريخ الإسلامي، حيث الأعداء يحيطون بهم من كل جانب، ويَفْتَنُّون في محاولتهم القضاء على الإسلام والمسلمين، ولم يدخروا في ذلك أي جهد يوصلهم إلى أهدافهم.

4 ـ إذا كان المسلمون في هذه الأيام قد تداعت الأمم عليهم وساء حالهم، فلا يهنوا ولا يضعفوا؛ لأن ذلك لا يعني نهاية المطاف، وأن كل شيء قد انتهى، وإنما يعني أنهم قد خسروا جولة من الجولات، وما حلَّ بهم ليس غير كابوس مزعج يسهل الإفاقة منه إذا هم أخذوا بالأسباب، واعتزوا بدينهم، ووحدوا صفوفهم، وأعدوا عدتهم، واستخلصوا العبر والدروس مما حل بهم، وهم على ثقة من نصر الله لهم، ورأس الأمر وعموده في هذا كله هو العودة إلى الإسلام روحاً ومنهجاً، وتحكيم كتاب الله فيما بينهم، والسير على منهجه، عند

ذلك يصبحون رحماء فيما بينهم، أشداء على أعدائهم، فيستعيدون ثقتهم في أنفسهم وهيبتهم في قلوب أعدائهم.

5 ـ إذا كان الأعداء يتفننون في استعمال الأساليب التي تمكنهم من المسلمين، فإنه يجب على المسلمين أن يفسدوا عليهم أسلحتهم، ويبطلوا أساليبهم، ليسلموا من مكرهم، وغدرهم، ويحيوا أعزاء كرماء. أما إذا مكّنت الأمة الإسلامية أعداءها من تحقيق ما يصبون إليه من التباعد بين المسلمين، وإيقاع الفتنة والعداوة بينهم ليعيشوا متنافرين متباعدين، غير متآلفين ولا متحدين، فإن ذلك ستكون عاقبته سيئة. حيث يتمكن أعداؤهم من القضاء عليهم قطراً بعد قطر، وإقليماً بعد إقليم؛ لأن مطامع الأعداء غير قاصرة على قطر معين، وإنما يستهدفون القضاء على الإسلام، وإذلال المسلمين بالسيطرة عليهم وإضعافهم وإخضاعهم لإرادتهم.

6 ـ سبيل المسلمين إلى تحقيق عزهم ومجدهم وانتصارهم على أعدائهم هو تمسكهم بدينهم، فالإيمان هو الزاد الذي يتزودون به في معاركهم، والذخيرة التي يدخرونها للميدان، والسلاح الذي يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل وأعوانه، وبوحدتهم يكون عزهم ومجدهم وبقاؤهم بين الأمم حاملين راية الإسلام. والمسلمون قادرون على الوقوف في مواجهة أعدائهم، والانتصار عليهم إذا وحدوا كلمتهم، وساروا، الطريق الذي رسمه لهم الإسلام، فهم يملكون من القوة العددية، والمادية، والمالية، ما يمكنهم من أداء واجبهم نحو حماية دينهم ووطنهم، ويحقق لهم النصر على أعدائهم. فبالإضافة إلى القوة العددية الهائلة التي يملكونها، فلديهم من الأموال، فضلاً عن موقعهم الجغرافي، ما يجعلهم أقوى الأمم وأشدها بأساً، لو أنفقوا أموالهم فيما يعود عليهم جميعاً بالخير والفائدة، وإعداد جيوش قوية، وإمدادها بمختلف الأسلحة التي تمكنها من القيام بأداء واجبها والتصدي لكل من تسول له نفسه الاعتداء على المسلمين، بوسيلة أو بأخرى. وهذا لا يتنافى مع كون الإسلام دين سلام. فالسلام الذي يؤيده الإسلام سلام مسلح، سلاح تحميه القوة، وتحميه العُدَّة، أما السلام الذي لا تحميه القوة، فهو استسلام وذل وهوان.

7 ـ في الوقت الذي يستعد فيه العالم لدخول القرن الحادي والعشرين، بنقلة حضارية تواكب العصر، وتساير التقدم العلمي والحضاري في شتى مناحي الحياة، نجد الدول الكبرى صاحبة السيادة والنفوذ تسعى لتزيد إحكام قبضتها على الدول العربية، وتعد العدة، وتختلق الافتراءات لفرض المزيد من الحصار على من يأتي عليه الدور من البلاد العربية؛ لأن استعمال الأعداء سلاح الحصار وغيره من الأسلحة الأخرى التي تمكنهم من إحكام السيطرة على المسلمين عامة، والعرب خاصة، ليس قاصراً على دولة دون أخرى؛ لأن أطماعهم لا تقف عند حد، وما حل بالدول التي فرض عليها الحصار، يمكن أن يحل بكل دولة لا تنتبه لهذا الخطر وتعد العدة لإغلاق الأبواب في وجه الأعداء ولا تمكنهم من التغلغل بين صفوف أبنائها، وتفسد عليهم سلاحهم وتفوت عليهم أغراضهم.

8 ـ الإرهاب عمل مذموم، ينكره كل الناس، ولا يقره شرع، ولا قانون، ولا عرف، ولا عقل سليم؛ لأن الباعث عليه هو الهوى والأغراض الشخصية، وثمرته الظلم وإشاعة الفوضى والاضطراب والقلق بين الناس، وانعدام الأمن والأمان الذي هو مطلب كل إنسان ومصدر سعادته، فمن حُرِم الأمن والأمان فقد حُرِم كل شيء في الحياة، وإن كان يملك منها كل شيء، ومن رُزِق الأمن والأمان فقد حيزت له الدنيا، وإن كان لا يملك منها أي شيء. يفهم هذا من قوله ﷺ في الحديث الذي رواه سلمة بن عبيد الله بن مَحْصَن الأنصاري عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أصبح منكم معافياً في جسده، آمناً في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزَتْ له الدنيا»**[59].

9 ـ من الأسباب التي تؤدي إلى ضعف الأمة التي ينتسب أبناؤها إلى الإسلام انتساباً تأخرها في الميدان الاقتصادي لفقدها معية ربها، ونزع البركة من أرزاقها وأبنائها. وضعف الحمية الإيمانية والغيرة على الدين، والعرض، والوطن في نفوس أبنائها، بسبب حبهم للدنيا، وانغماسهم في ملذاتها وشهواتها، فتضيع فريضة الجهاد بينهم؛ لأنهم يحبون الحياة ويكرهون الموت،

---

(59) سنن ابن ماجة: ص1387. حديث رقم: 4141. كتاب الزهد. باب القناعة.

ولو كان في سبيل الله فتضعف معنوياتهم، ويختل توازنهم، فتضطرب نفوسهم، وتزلزل أقدامهم، فيضعفون في مواجهة أعدائهم، وإن كثر عددهم وعتادهم؛ لأنهم غثاء كغثاء السيل.

10 ـ تنوعت مظاهر عداوات الكافرين للمسلمين، سواء كان بالاستعمار أو الغزو الفكري والاقتصادي وإيقاع العداوة فيما بينهم، واتهامهم بالإرهاب، لفرض الحصار عليهم، وحرمانهم من امتلاك أسلحة الدفاع عن أنفسهم، لإحكام قبضتهم على المسلمين، وتدميرهم، وجعلهم لقمة سائغة يتقاسمونها حسب أهوائهم وأغراضهم.

11 ـ الأصل أن السبيل للمؤمنين على الكافرين، ما كانوا مؤمنين صادقين، وبالكتاب والسنة عاملين وبالأسباب آخذين، وهذا ما أخبر به القرآن الكريم. أما إذا قصروا في الأخذ بالأسباب وجعلوا الكتاب والسنة وراء ظهورهم كان السبيل للكافرين عليهم.

12 ـ معية الله تكون للمؤمنين الصادقين، فيعمهم بالبركات، وينزل الطمأنينة والسكينة على نفوسهم، ويقذف الرعب في قلوب أعدائهم، فيتحقق لهم النصر والسيادة والريادة في جميع ميادين حياتهم.

13 ـ المنتسبون للإسلام، المقصرون في طاعة الله، المفرِّطون في الأخذ بالأسباب، يَكِلُهم الله إلى نفوسهم، وينزع المهابة من صدور أعدائهم، ويقذف بالوهن في قلوبهم، فيضعفون في مواجهة أعدائهم، فيصبحون تُبَّعاً لهم في كل شيء، وإن كثر عددهم وعتادهم؛ لأنهم يكونون غثاءً كغثاء السيل.

14 ـ رحمة النبي ﷺ بأمته، حيث دعا ربه أَلاَّ يهلكها كما أهلك الأمم السابقة، وقد استجاب الله لرسوله، وأبان أنه لا يسلط عليها عدواً يستأصل بيضتها حتى يكون بعضهم يقتل بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً.

15 ـ بقاء أمة الإسلام إلى يوم القيامة، ولو اجتمع عليها من بأقطار الدنيا كلها وأن السبيل لها على الكافرين. فإذا دارت الدائرة عليها، وخسرت جولة من الجولات فما ذلك إلا تمحيص لها ومعالجة لما قد يكون قد وقع من خلل في صفوفها، لردها إلى جادة الإسلام حتى تكون أهلاً لتحقيق نصر الله لها.

المصادر والمراجع

- إغاثة اللهفان لابن القيم. تحقيق الفقي.
- الأحكام السلطانية للماوردي. ط: مصطفى البابي الحلبي.
- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور. ط: الدار التونسية للنشر والتوزيع.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. ط: مطبعة الشعب بمصر، ودار إحياء التراث العربي.
- الروضة البهية شرح اللمعة الدمشقية للعاملي.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة.
- السيرة النبوية لابن كثير.
- السيرة النبوية لابن هشام. ط: دار الجيل. الطبعة الأولى، ومطبعة الشعب بمصر تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
- الشرح الصغير لأحمد الدردير بهامش بلغة السالك. ط: دار المعرفة.
- الطبقات الكبرى لابن سعد.
- العقوبات الشرعية، وهبة الزحيلي، ط: كلية الدعوة الإسلامية.
- القصاص والديات في الفقه الإسلامي، أحمد الحصري، نشر مكتبة الكتاب الطبعة الثانية.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر (الزمخشري)، ط: المطبعة الأميرية.
- اللباب في شرح الكتاب، لعبد الغني الغنيمي، ط: دار الكتاب.
- المغني لابن قدامة. ط: مطبعة الفجالة.
- المهذب للشيرازي. ط: مصطفى الباب الحلبي.
- النهاية في مجرد الفقه والفتاوي لعلي الطوسي. ط: دار الكتاب، الطبعة الثانية.
- الهداية للمرعناني، بهامش شرح فتح القدير، ط: مصطفى البابي الحلبي.
- تفسير آيات الأحكام، محمد علي السايس. ط: محمد علي صبيح.
- تفسير الفخر الرازي.
- تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط: دار المعرفة. الطبعة الثانية.

- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير، ط: مطبعة المنار، ودار الأندلس بيروت.
- تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت.
- تفسير المراغي، ط: دار الفكر، الطبعة الثالثة.
- جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن جرير الطبري، ط: دار المعرفة.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي.
- سبل السلام للصنعاني، ط: الاستقامة بالقاهرة.
- سنن ابن ماجة.
- سنن أبي داود، ط: دار الفكر.
- سنن النسائي، ط: دار الفكر.
- شرح السنة للبغوي، ط: المكتب الإسلامي.
- شرح فتح القدير، للكمال بن الهمام، ط: مصطفى البابي الحلبي.
- صحيح البخاري.
- صحيح البخاري، بهامش السندي.
- صحيح سنن أبي داود. ط: دار الفكر العربي، بيروت.
- صحيح مسلم، بشرح النووي، ط: الغد العربي. الطبعة الأولى.
- مختصر صحيح البخاري، المسمى بالتجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، تأليف الإمام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل. ط: دار الفكر.
- منح الجليل شرح مختصر خليل للشيخ عليش.
- نيل الأوطار للشوكاني. ط: دار الجيل.